الإعجاز الدلالي للصور الاستعارية في القرآن الكريم:
دراسة بلاغية تحليلية

عبد الله بولنوار
مختبر الخطاب وتكامل المعارف، جامعة السلطان مولاي إسماعيل
المملكة المغربية

الملخص:

يتناول هذا المقال دور الاستعارة في بناء الدلالات القرآنية، وإسهامها في تحقيق إعجازه. بحيث ينطلق من فرضية مفادها: أن الاستعارة ليست مجرد وسيلة للتزيين فقط، بل هي آلية لإنتاج المعنى، وتجسيد المقاصد، وتعميق الأثر في المتلقي. وهو يكشف عن أنواع الدلالات في هذا الخطاب، ويبين صلتها ببناء الصورة البيانية، كما يفسر الدواعي الدلالية التي جعلت من الاستعارة أداةً متميزة في التعبير القرآني، وما تفضي إليه من أبعاد، تكشف عن وجه بارز من وجوه الإعجاز الدلالي الذي يتفرد به الخطاب القرآني.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة القرآنية؛ التصوير البياني؛ الإعجاز الدلالي؛ الصورة القرآنية.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدمة:

من الظواهر اللافتة للنظر في الخطاب القرآني، هو قدرته الفائقة على بناء الصورة البيانية، التي تقوم برسم المعاني في النفس، بريشة الألفاظ والكلمات، بما يساعد في فتح باب الكشف عن أسراره، وهو ما تنبّه له البلاغيون منذ القديم: بدءا بالجاحظ في جانبه العام، ومرورا بصاحب الأسرار والدلائل، ووصولا إلى صاحب الكشاف في جانبه التخصصي الدقيق، ليحدو حدوهم نفر من المفسرين، الذين اتخذوا البيان مشعلا لسبر أغوار الذكر الحكيم، وإظهار ما تحبل به آياته من أسرار.

وقد استأثرت الاستعارة تحديدا، بمنزلة بارزة بين مباحثه علم البيان، نظرا للدور الذي تؤديه في الكشف عن هذا الموضوع، كما يدل على ذلك، كثرة الدراسات التي تناولته، بلاغيا وبيانيا، ولكن بالرغم من كل ذلك، فإن العلاقة بين الاستعارة والإعجاز الدلالي في تشكيل الصورة القرآنية تحديدا، في حاجة إلى مزيد من التحليل؛ ولا سيما من حيث بيان الآليات الدلالية، التي تُنتج بها الصورة الاستعارية معانيها، وتُسهم في تحقيق الأثر البياني للنص القرآني.

وانطلاقًا من ذلك، تسعى هذه الدراسة، إل الكشف عن دور الاستعارة في تشكيل الدلالات، وبالتبع لذلك، بيان أوجه الإعجاز الكامنة فيها، في حدود ما تسمح به هذه الورقة البحثية، من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية: ما أغراض التصوير بالاستعارة في القرآن الكريم؟ وما أهميته في بناء الدلالة؟ وما الدلالات الخاصة والعامة التي تنتجها الصور الاستعارية؟ وما وجوه الإعجاز الدلالي التي تنشأ عنها؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، تعتمد الدراسة المنهج الوصفي أساسًا، مع الإفادة من التحليل والمقارنة والموازنة، عند الحاجة، وذلك وفق المحاور الآتية:

- **المحور الأول:** الدلالات الخاصة لصُور الاستعارة القرآنية المفردة.
- **المحور الثاني:** الدلالات الخاصة لصور الاستعارة القرآنية غير المفردة.
- **المحور الثالث:** الدلالات العامة لصُور الاستعارة القرآنية.
- **المحور الرابع:** الدواعي الدلالية للتصوير بالاستعارة القرآنية.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المحور الأول: الدلالات الخاصة لصور الاستعارة القرآنية المفردة

أولا: نموذج من الاستعارة التصريحية: وهو قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب: 43]

في هذه الآية الكريمة، جرت الاستعارة في اللفظ المفرد، لأن المستعار فيها هو لفظ مفرد (الظلمات) و (النور)، وذلك لا يعني استقلال هذا اللفظ بالاستعارة والمعنى الذي تدل عليه عن النظم التركيبي التي وردت فيه، بل هي استعارة ما دامت في ذلك النظم وإلا فلا، ومعناها يدرك بذلك التركيب لا بغيره، وإنما هي مفردة باعتبار نوع اللفظ الذي جرت فيه وهو كونه مفردا لا مركبا.

والاستعارة التي في هذه الآية، هي استعارة تصريحية تحقيقية كذلك، كما أنها أصلية لأن اللفظتين المستعارتين من الأسماء الجامدة غير المشتقة أعني (الظلمات والنور) وهذا هو الأصل في الاستعارة، ولو نظرنا إلى مرجعية هذه الصورة لتبين لنا أنها جاءت مادية محسوسة، دلالة على أن هذا المستعار له هو في الأصل مادي محسوس تدركه الحواس وتجد أثره الأعضاء ولو بعد حين.

وفي هذه الاستعارة إشارة إلى أن المسلم، كالبصير الذي بنفاذ عَيْنيه يسلك طريقه على بينة، فهو يعرف وجهته، وغير المسلم كالأعمى تماما، مكفوف ضرير لا يميز ولا يختار بين الأماكن التي يضع فيها أقدامه، الأمر الذي يجعله على شفا جرُف هارٍ، مشرف على الهلاك في أي لحظة، فإن نجا في هذه فليس ينجو في تلك، بل ينهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين، فهو كما قلتُ مرة أخاطب هذا المسكين ومن يليه:

وسلكتَ في الدنيا سَبيلاً مُهْـــــــــــــــوِلاً جهلا فذا معوجّهُ وذا مائلــهْ

حتى أتيْتَ على جنون مطبـــــــــــــــــــــــــــــــــــق قد جاوزت نحو الحضيض أفاعلهْ

وإذا نظرنا في دلالة هذه الاستعارة، نجد المفسرين يسوقون عدة أقوال في معنى "الظلمات" و"النور" اللذين عُدل فيهما عن معناهما الحقيقي، وهي:

1- الصورة الأولى: "لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ"

1-1- الظلمات: الكفر والشرك:

وكلا المعنيين: الكفر والشرك، لمقاتل بن سليمان (ت: 150هــ)، فأما الأول الذي فيه أن الظلمات هي "الكفر" فذكره أبو الحسن علي الماوردي (ت: 450هــ) ونسبه لمقاتل" ، وأما الثاني الذي هو الشرك فظاهر من قول مقاتل عند شرح الآية، قال:" ليخرجكم من الظلمات إلى النور يعني لكي يخرجكم من الظلمات إلى النور يعني من الشرك إلى الإيمان"[1].

ويمكن الوقوف على نفس المعنى للفظ "الظلمات" في قوله تعالى في أول سورة إبراهيم صلوات الله عليه: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم: 1]، فالظلمات: استعارة للكفر، والمستعار له مطوي الذكر، كأنه قال: لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة إلى الإيمان الذي هو كالنور، فحذف أحد طرفي التشبيه لتتحول الصورة إلى استعارة.

1 – تفسير مقاتل بن سليمان (المتوفى: 150هــ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، نشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى - 1423 هــ، ج3، ص499.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وإذا بحثنا في سبب استعمال لفظ "الظلمات" مكان "الكفر" و"الشرك" بالله تعالى، لوجدناه يعود إلى الإبانة والبيان، وذلك لا يكون إلا باستعمال الأشهر، الذي هو "الظلمات" على حساب الأقل شهرة وهو "الكفر والشرك"، لأن "الظلمات" واضحة بينة مميزة عن النور والضياء، ولكن على النقيض منها نجد الكفر والشرك غير واضحان وضوح "الظلمات"، لأن الكافر قد يخفي كفره فلا يعلم، كما نجد مع المنافقين، وكذلك المشرك قد لا يظهر شركه.

وهذا المعنى هو ما يؤكده الحديث النبوي الشريف الذي روي عن معقل بن يسار قال "انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل) فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلها آخر؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: (قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم)"[1]، وعليه فاستعمال لفظ "الظلمات" مكان "الكفر والشرك" هو استعمال للأشهر على حساب الأقل شهرة، والأظهر على حساب الأقل ظهورا، لأن فيه إخراج ما لا يرى إلى ما يرى.

1-2- الظلمات: الضلالة

نقله مجاهد عن ابن أبي نجيح، قال:"{ليخرجكم من الظلمات إلى النور} [الأحزاب:43] قال: «يعني من الضلالة إلى الهدى»"[2]، ورده الماوردي (المتوفى: 450هـ) لعبد الرحمن بن زيد، قال بعد عرضه لقولين يهمنا ثانيهما: "الثاني: من الضلالة إلى الهدى، قاله عبد الرحمن بن زيد"[3]. ويمكن قول المعنى نفسه للفظ "الظلمات" في قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم: 1]، فالظلمات استعارة للضلال، كأنه قال: لتخرج الناس من الضلال الذي هو كالظلمة ليدخلهم في الهدى الذي هو كالنور، وليس القصد متعلق بوصف فقط، وإنما إسناد الحكم الذي له، فالظلمة متعلقة بالليل والنوم والغفلة والتعب والحرج والضيق ونحوه، والنور بخلاف كل ذلك.

1-3- الظلمات: النار

ذكر هذا المعنى الماوردي (المتوفى: 450هـ) في تفسيره، وذلك بعد أن قدم قولين اثنين: أحدها: من الكفر والثاني: من الضلالة ، قال: "الثالث: من النار إلى الجنة"[4]، و لم يرد هذا المعنى الأخير لأحد من السلف، مما يدل على أنه هو القائل به، على عكس ما نجد مع المعنى الأول والمعنى الثالث.

وذكر السمرقندي (المتوفى: 373هـ) عدة معان أخرى للظلمات في قوله تعالى: «ليخرجكم من الظلمات إلى النور"، قال: "ليخرجكم من الظلمات يعني: من المعاصي إلى نور التوبة، والطهارة من الذنوب. ويقال: من ظلمات القبر إلى نور المحشر. ويقال: من ظلمات الصراط إلى نور الجنة. ويقال: من ظلمات الشبهات إلى نور البرهان والحجة"[5]، ومن كلامه هذا تظهر المعاني التالية:

---

1 – الأدب المفرد بالتعليقات، البخاري (المتوفى: 256هـ)، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، نشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م، ص377.

2 – تفسير مجاهد (المتوفى: 104هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، نشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1989 م، ج1، ص648.

3 – تفسير الماوردي، ج4، ص410

4 – المصدر السابق، ج4، ص410

5 – بحر العلوم، السمرقندي (المتوفى: 373هـ)، د د، د ط، د ت، ج3، ص65.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

1-4- الظلمات: المعاصي

1-5- الظلمات: الصراط

1-6- الظلمات: الشبهات

كما وأن هناك معان كثيرة أخرى قال بها المفسرون غير ما ذكرنا منها ما ذكره العلامة أحمد بن عجيبة (المتوفى: 1224هـ) قال: "ليُخرجكم من الظلمات إلى النور، من ظلمة المعاصي إلى نور التوبة والاستقامة، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة الهوى والحظوظ إلى نور الزهد والعفة، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم بالله"[1]، وفي قوله هذا تظهر معان أخرى غير ما ذكرنا آنفا وهي كالتالي:

1-7- الظلمات: الغفلة

1-8- الظلمات: الهوى والحظوظ

1-9- الظلمات: الحس

1-10- الظلمات: الجهل

2- الصورة الثانية: "لِيُخْرِجَكُمْ إِلَى النُّورِ"

هناك عدة دلالات للفظ "النور" في هذه الصورة حسب المفسرين وهي كالتالي:

2-1- النُّور: الإيمان

قال مقاتل بن سليمان (المتوفى: 150هـ): "ليخرجكم من الظلمات إلى النور يعني لكي يخرجكم من الظلمات إلى النور يعني من الشرك إلى الإيمان"[2]، ومثل هذا قوله تعالى في أول سورة إبراهيم صلوات الله عليه: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم: 1]، فالنور: استعارة للإيمان، والمستعار له مطوي الذكر، كأنه قال: لتخرج الناس من الكفر الذي هو كالظلمة إلى الإيمان الذي هو كالنور، وليس الأمر منحصرا بإرادة وصف فقط، وإنما إسناد الحكم الذي هو له، فالنور متعلق بالضياء والحسن والصفاء والوضوح والبيان والبهجة والفرج ونحوها من الصفات، والظلام بخلاف ذلك.

2-2- النُّور: الهدى

قال بهذا المعنى عبد الرحمن بن زيد[3]، أي أنه تم استعارة النور للهدى، وعليه فهذا يشبه قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم: 1]، إذ يمكن القول إن لفظ "النور" استعمل مكان "الهدى"، ومثلهما قوله تعالى: {أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها}[الأنعام: 122]، أما عن

1 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أحمد بن عجيبة (المتوفى: 1224هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، نشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: 1419 هـ، ج7، ص314.

2 - تفسير مقاتل بن سليمان، ج3، ص499.

3 - تفسير الماوردي، ج4، ص410

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

سبب هذا الاستعمال فيقول أبو هلال العسكري (المتوفى: نحو 395هـ): "فاستعمل النور مكان الهدى، لأنه أبين "[1]. وما أكثر الاستعارات التي تكون علة استعمالها البيان والشهرة، ذلك أن المعنى الحقيقي والاستعاري بينهما تباين من حيث الظهور، فيتم استعمال الثاني عوضا عن الأول لإبرازه به، فتكون النتيجة وصف ما هو أخفى بالتشبيه لما هو أظهر، بقصد إظهاره وبيانه. وسنقف مع هذا الأمر أكثر فيما سيأتي من استعارات.

2-3- النور: الجنة

قاله الماوردي (المتوفى: 450هـ) في "النكت والعيون"[2].

2-4- النور: محمد صلى الله عليه وسلم

يجوز أن يراد بالنور محمد صلى الله عليه وسلم ويؤيد هذا عدة آيات منها قوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: 15]، يقول أبو جعفر في معنى النور في هذه الآية: "يقول جل ثناؤه لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب: "قد جاءكم"، يا أهل التوراة والإنجيل «من الله نور"، يعني بالنور، محمدا صلى الله عليه وسلم الذي أنار الله به الحقّ، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبيِّن الحق. ومن إنارته الحق، تبيينه لليهود كثيرا مما كانوا يخفون من الكتاب"[3].

رغم أن الخطاب في قوله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: 15] لأهل الكتاب، وفي قوله تعالى: {لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الأحزاب: 43] للمؤمنين، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان نورا هاديا لكل الناس دون تمييز.

ويؤيد هذا المعنى ويزيد في تأكيده السياق التركيبي الذي جاءت فيه الآية، ذلك أن هذه الآية مسبوقة بما يدل على أن الكلام وهو تعلقها بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهو قوله تعالى:"{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[الأحزاب: 40].

2-5- النور: القرآن الكريم

ويؤيد هذا المعنى أن النور في القرآن جاء في آيات كثيرة دالا على القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} [النساء: 174]، وفي معنى النور الذي في هذه الآية قال الطبري: "وذلك "النور المبين"، هو القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم"[4]، وعلى هذا فلا مانع من أن يراد بالنور في الآية القرآن الكريم، لأن بنور القرآن يتم الخروج من ظلمات الكفر عامة.

1 – الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ، ص270.

2 – انظر تفسير الماوردي = النكت والعيون، ج4، ص410

3 – جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، نشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ – 2001 م، ج10، ص143.

4 – جامع البيان في تأويل القرآن، ج9، ص428.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

2-6- النور: التوحيد

يقول الأمين الشنقيطي (المتوفى : 1393هـ) في معنى النور الذي في قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ] [الحديد:9] "أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والهدى، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبينا في قوله تعالى في الطلاق:{فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الطلاق:10 - 11]"[1].

ولأن الضمير في قوله تعالى:[هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ] [الحديد:9] يحتمل أن يعود إلى الله تعالى، بحسب السياق التركيبي، وهذا ما يؤيده أول الآية الذي هو قوله تعالى: [هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ]، وآخر الآية الذي هو قوله تعالى: [وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ] [الحديد:9]، كما يحتمل أن يعود على "عبده" الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الضمير في العربية يعود على آخر من ذكر، فكذلك في قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب: 43] يعود الضمير إلى الله تعالى حسب السياق التركيبي.

وعليه فالله تعالى هو الذي أرسل الرسول صلى عليه وسلم، وأنزل عليه القرآن، ليبعد هؤلاء من الشرك ويخرجهم منه، وليدخلهم بعد ذلك في التوحيد، لأنه تعالى ما أرسل الأنبياء إلا ليدعوا لتوحيده، قال تعالى: مُخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25].

بالإضافة إلى معان أخرى للنور يمكن استنباطها من كلام السمرقندي (المتوفى: 373هـ) الذي ذكرناه سابقا، وفيه: "ليخرجكم من الظلمات إلى النور"، قال: "ليخرجكم من الظلمات يعني: من المعاصي إلى نور التوبة، والطهارة من الذنوب. ويقال: من ظلمات القبر إلى نور المحشر. ويقال: من ظلمات الصراط إلى نور الجنة. ويقال: من ظلمات الشبهات إلى نور البرهان والحجة"[2]، وهذه المعاني هي:

2-7- النور: التوبة والطهارة من الذنوب

2-8- النور: المحشر

2-9- النور: البرهان والحجة

كما وأن هناك معاني كثيرة أخرى قال بها المفسرون غير ما ذكرنا منها ما يتبين مما ذكره أحمد بن عجيبة (المتوفى: 1224هـ) في قوله: "لِيُخرجكم من الظلمات إلى النور، من ظلمة المعاصي إلى نور التوبة والاستقامة، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة الهوى والحظوظ إلى نور الزهد والعفة، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم بالله"[3]، ومن كلامه هذا تظهر المعاني التالية:

1 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي (ت: 1393هـ)، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: 1415 هـ - 1995 م، ج7، ص543.

2 - بحر العلوم، ج3، ص65.

3 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج7، ص314.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

2-10- النور: الاستقامة

2-11- النور: اليقظة، أي أنه ضد الغفلة.

2-12- النور: الزهد والعِفة

2-13- النور: المعنى

2-14- النور: العلم بالله

ومن كل ما سبق ففي قوله تعالى: {لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور} [الحديد: 9] استعارة مفردة، وهي كذلك تصريحية طوي ذكر المستعار له فيها، فما الإعجاز في هذا الاستعمال والتعبير الخاصين؟

إنه إمكانية إفادة معان واسعة غير محصورة بعدد، وما من معنى إلا وتتولد منه معان أخرى ربما ذكر المفسرون بعضها، والبعض الآخر لا عهد لنا به، وكل واحد منها يتعلق بالسياق التركيبي للآية، ويرد متواشجا ومتناسجا معه، بلا أدنى تعارض يمكن أن يكون سببا في تركه واستبعاده.

ومن ذلك القول إن لفظ {الظلمات} استعير للدلالة على الكفر، أو الشرك، أو الضلالة، أو المعاصي، أو النار ...إلخ، وفي كل ذلك نجد استعمال الأشهر على حساب الأقل شهرة، لأن فيه تم إخراج ما لا يرى إلى ما يرى. وكذلك لفظ {النور} استعير للدلالة على الإيمان، أو الهداية والهدى، أو التوبة، أو القرآن، أو النبي، أو الطهارة من الذنوب، أو الجنة، إلى غير ذلك من المعاني التي لا تعد ولا تحصى.

وليس المراد إحدى تلك المعاني فحسب، بل كلها مرادة ومقصودة، فقوله: {لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور} [الحديد: 9] هو بمعنى ليخرجكم من ظلمات اتباع الكفار، إلى نور اتباع النبي المختار، ومن ظلمات القبر إلى نور المحشر، ومن ظلمات الصراط إلى نور الجنة، ومن ظلمات الشبهات إلى نور البرهان والحجة، ومن ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، ومن عالم الظلام والضلال، إلى عالم النور والهدى...إلخ.

ثانيا: نموذج من الاستعارة المكنية: وهو قوله تعالى :{رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} [مريم:4]

يمكن الوقوف في هذه الآية على استعارة مكنية مبنية على المشابهة بين طرفين هما مستعار له وهو الشيب، ومستعار منه وهو النار أو اللهب، والمستعار هو: الاشتعال، والمستعار منه محذوف من التركيب لكن بقيت قرينة لفظية تدل عليه هي المستعار: "اشتعل" يقول جار الله (المتوفى: 538هـ) في تفسير هذه الاستعارة: «شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ، باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس. وأخرج الشيب مميزا و لم يضف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا"[1].

وبيان ما في التعبير باشتعال الرأس من دلالات نقدمه بشيء من التفصيل كما يلي:

1- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ، ج3، ص4.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

1- التعبير "باشتعال الرأس" يدل على البياض

في هذه الاستعارة تشبيه محسوس بمحسوس بينهما تباين من حيث الظهور، وذلك ليبرزه به، يقول ابن أبي الإصبع العدواني (المتوفى: 654هـ):"وفائدة ذلك وحكمته وصف ما هو أخفى بالتشبيه لما هو أظهر"[1]، فالثاني النار أوضح للعين من الشيب ولهذا تبصر من بعيد بينما الشيب لا يرى إلا من قرب: فتم تشبيه الشيب في بياضه وإنارته، باللهب أو بشواظ النار، والجامع بين المستعار منه اللهب، والمستعار له الشيب هو مشابهة لون ضوء النار للون بياض الشيب، ولا شك أن النار أوضح من الشيب في البياض، وقد تم ذلك على طريق الاستعارة المكنية، حيث حذف المستعار منه الذي هو النار ورمز إليه بأحد لوازمه وهي القرينة اللفظية "اشتعل"، وكل ذلك للدلالة على تمكن البياض من الشعر، حتى صار كأنه ملتهب.

2- التعبير "باشتعال الرأس" يدل على الاستغراب من الشيب

ولا شك أن الشيب غير مرغوب فيه، ولهذا جرت عادة الناس في التعامل معه على خضبه بالحناء، وكذلك نجد نبي الله زكرياء يستغرب منه، فكأنه ينكر على رأسه ما آل إليه حاله بعد أن تفشى فيه الشيب، ولهذا لم ينسبه له فقال "اشتعل الرأس" و لم يقل "اشتعل رأسي"، وهذا ما يؤكده كذلك عبد الكريم الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ) بقوله: "فإن فى النظم الذي جاء عليه القرآن دلالة على أن هذا الرأس كائن غريب يكاد ينكره صاحبه، لأنه أصبح بهذا الشيب على صورة غير تلك الصورة التي عهده صاحبه عليه منذ عرف أن له رأسا. فهذا الرأس كان أسود الشعر، أو أصفره. ثم ها هو ذا يراه وقد استحال إلى بياض معتم، كرماد تخلّف من النّار"[2].

3- التعبير "باشتعال الرأس" يدل على سرعة الانتشار مع تعذر التلافي

في لفظ (اشتعل) تم تشبيه انتشار الشعر الأبيض (الشيب) في الشعر الأسود باشتعال النار في الفحم وفشوّها فيه، لاشتراكهما في سرعة الانبساط مع تعذر تلافيه، يقول عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: 1391هـ) في هذا المعنى المشترك بين الشيب والنار: «تشبيه انتشاره في الشعر باشتعالها في سرعة الانبساط مع تعذر تلافيه"[3]، والضمير في "انتشاره" يعود على الشيب وفي "اشتعالها" يعود على النار.

وعليه فقوله تعالى: {واشتعل الرأس شَيْباً} [مريم: 4] يعني: بسط الشيب سلطانه في الرأس بتفشيه فيه واستيلائه عليه كلّه، كما تبسط النار سلطانها في الفحم فتتفشى فيه، وتستولي عليه، وذلك عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية، لأنه قد صرح بلفظ المستعار منه /المشبه به الذي هو "اشتعل"، وهو بلا ريب من الأفعال، لا من أسماء الأجناس.

4- التعبير "باشتعال الرأس" يدل على كبر السن

1 – تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم ابن أبي الإصبع العدواني، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، نشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، د ط، د ت.، ص98.

2- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ)، نشر: دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، د ت، ج8، ص723.

3- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، نشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: 1426هـ-2005م، ج3، ص984.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

على اعتبار العادة المتعلقة بطبيعة البشر فإن الشيب يقترن بالتقدم في العمر، وكذلك هذه الآية تدل على كبر سن زكرياء عليه السلام، والنظم التركيبي لهذه الآية وسياقها يثبت هذا لأنها مسبوقة بقوله تعالى في نفس الآية: {قال رب إني وهن العظم مني} [مريم: 4]

كما أن الرأس لا يعمه الشيب عادة إلا بعد أن يعم اللحية في مرحلة متأخرة، يقول ابن عاشور (المتوفى : 1393هـ): "أسند الاشتعال إلى الرأس، وهو مكان الشعر الذي عمه الشيب، لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالبا، فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن"[1].

5- التعبير "باشتعال الرأس" يدل على الضعف والنقصان

ولأن من المعلوم من الحياة بالضرورة أن التقدم في السن مقترن بضعف الجسم، ونقصان القوة، فقد قدم لنا الشيخ محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ) تحليلا علميا لهذه الصورة، ليثبت أن اشتعال الرأس بالشيب يدل على وهن قوة الجسم وضعفه كذلك، يقول: "واشتعال الرأس بالشيب أيضا دليل على ضعف الجسم ووهن قوته؛ لأن الشعر يكتسب لونه من مادة ملوّنة سوداء أو حمراء أو صفراء توجد في بُصَيْلة الشعرة، وتُمد الشعرة بهذا اللون، وضعف الجسم يُضعف هذه المادة تدريجيا، حتى تختفي، وبالتالي تخرج الشعرة بيضاء، والبياض ليس لونا، إنما البياض عدم اللون نتيجة ضَعف الجسم وضَعْف الغُدد التي تفرز هذا اللون"[2].

فلما كان الشيب يسعى في الرأس شيئا فشيئا فإنه سيحيله إلى غير حالته الأولى التي كان عليها، كالنار التي يشتعل لهيبها في الحطب، أو الفحم، أو أي جسم من الأجسام، فيبدأ بالنقصان الذي يتسبب فيه الاحتراق، إلى أن ينقضي ويزول كله.

المحور الثاني: الدلالات الخاصة لصور الاستعارة القرآنية غير المفردة

تتعدد النماذج القرآنية التي يمكن الوقوف عليها لبيان الدلالات الخاصة لصور الاستعارة غير المفردة، لكن حسبنا تسليط الضوء عن الموضوع من خلال نموذج واحد من الصور هو قوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [الأنبياء: 18]

ففي قوله تعالى «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه» نجد نوعين من الاستعارة الأولى تبعية في لفظي (نقذف ويدمغ) حيث استعير القذف والدمغ لدحض الباطل بالحق، ومكنية في لفظي (الحق والباطل) وهما معنويان، إذ شبها بشيئين ماديين محسوسين يقذفان ويدفعان – كجرمين مثلا الأول قوي ضخم والثاني أجوف صغير – ثم حذف هذين الشيئين واستعار ما هو من لوازمهما وكنى به عليهما، وهو نفسه القرينتان اللفظيتان "القذف" و"الدمغ".

ولأن هذه اللفظ المستعار في هذه الاستعارة جاء غير مفرد أي أنه مركب من عدة ألفاظ مفردة تم استعمالها في غير ما وضعت له، أي أن المراد بها غير معناها الأصلي، إضافة إلى وجود علاقة المشابهة بين هذا المعنى الأصلي والمعنى المجازي، فهي "استعارة تمثيلية"، أو ما يطلق عليه "الاستعارة على سبيل التمثيل"، وتفصيل القول في دلالات هذا المثال كما يلي:

أولا: دلالات «نقذف ويدمغ»

في لفظي (نقذف ويدمغ) استعارة تبعية حيث استعير القذف والدمغ لدحض الباطل بالحق، وبيانهما كالتالي:

1 – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، نشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ، ج16، ص64.
2 – تفسير الشعراوي – الخواطر، محمد متولي الشعراوي، نشر: مطابع أخبار اليوم، الطبعة: 1997م، ج15، ص9027.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

1- دلالات «قذف الباطل بالحق»

في هذه الصورة تم استعارة المحسوس الذي هو "القذف" للمعقول الذي هو المستعار له "الحق"، وذلك لغرض مهم يتمثل في "تجسيد الإطاحة بالباطل واعتلاء الحق عليه"[1]، وقد تم اختيار استعارة ما هو محسوس لما هو معقول لأنه أظهر وأبين منه، وبالتالي فهو يبرزه أكثر من لو كان هذا المستعار معقولا، ويقربه إلى المتلقي بطريقة بسيطة، ولو بقي معقولا على أصله و لم يستعن محسوس لكانت فائدة البيان حينئذ غير متحققة، على الأقل كتحققها مع استعارة المحسوس، وهو ما يجعل وظيفة الاستعارة كوظيفة المِجهر "الميكروسكوب" تماما وخاصة بعدسته المحدبة، لأنهما معا يقربان البعيد، ويكبران الصغير كل ذلك بقصد إظهاره وبيانه ليصير ظاهرا للعيان.

كما أن في الجمع بين المحسوس والمعقول فوائد منها تصوير المعقول الذي هو معنوي مجرد في صورة الجسم المحسوس، وكأنه يزرع الحياة فيه ليصير حيا مشاهدا، يقول سيد قطب (المتوفى: 1385هـ): "وكثيرًا ما يجتمع التخييل والتجسيم في المثال الواحد من القرآن، فيصور المعنوي المجرد جسمًا محسوسًا، ويخيل حركة لهذا الجسم أو حوله من إشعاع التعبير"[2].

ويمكن حصر دلالات التعبير بالقذف في هذه الاستعارة فيما يلي:

1-1- التعبير بالقذف يدل على قوة الحق وقهره للباطل

إن التعبير عن الإيراد الذي هو المعنى الحقيقي المقصود بالقذف، فيه بيان لقوة وقع الحق على الباطل برميه عليه بقوة ليقهره، ولهذا شُبّه الحق بشيء صلب والباطل بشيء رخو واستعير لفظ القذف لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل، فكأنه رمي بحجر ضخم صلب على رأس دماغ الباطل، الأمر الذي سيمكنه منه كل التمكن، يقول أبو هلال العسكري (المتوفى: نحو 395هـ) في حقيقة هذا التعبير وبلاغته: "حقيقته بل نورد الحقّ على الباطل فيذهبه. والقذف أبلغ من الإيراد؛ لأن فيه بيان شدة الوقع وفي شدة الوقع بيان القهر"[3].

1-2- التعبير بالقذف يدل على ثبات الحق وثقله وتغير الباطل وخفته

إن التعبير بالقذف يدل كذلك على ثبات الحق وثقله وتغير الباطل وخفته، والذي يعكس هذا المعنى هو كون القذف في الحقيقة من صفات الأشياء الثقيلة، التي يرجم بها، كالحجارة مثلا التي تتميز بالشدة والدوام، وكل ذلك غير متوفر بنفس القدر فيما يقع عليه، ويقذف به بل هو على العكس من ذلك تماما، يقول الأستاذ جعفر شرف الدين: "حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة، التي يرجم بها، كالحجارة وغيرها. فجعل سبحانه، إيراد الحق على الباطل، بمنزلة الحجر الثقيل، الذي يرضّ ما صكّه، ويدمغ ما مسّه"[4].

1-3- التعبير بالقذف يدل على صلابة الحق ورخاوة الباطل:

تمت استعارة القذف للحق لأن القذف في الحقيقة خاص بالحديد أو الحجارة أو ما يقوم مقامهما في الصلابة مما يلقى على ما يراد تهشيمه مما يكون في العادة رخوا أجوفا، وفي ذلك إرادة مقابلة شيئين متضادين: الأول يتميز بالصلابة والثاني بالرخاوة، ثم

1- إعراب القرآن وبيانه، مصطفى درويش، نشر: دار الإرشاد للشؤون الجامعية – حمص – سورية، الطبعة : الرابعة، 1415 هـ، ج6، ص696.
2 – التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، نشر: دار الشروق– بيروت– القاهرة، ط:17، د ت، ص83.
3 – الصناعتين، ص272.
4- الموسوعة القرآنية، خصائص السور، جعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجري، نشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى – 1420 هـ، ج5، ص296.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إلحاقهما بآخرين يشبهانهما وهما: الحق والباطل، يقول الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ):"واستعار لذلك القذف والدمغ، تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا، قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه"[1].

1-4- ثبات الحق واستقراره وانزهاق الباطل وتطايره

نجد في هذه الصورة تجسيما للحق وذلك بتصويره في صورة القذيفة الثقيلة، لأن القذف في الحقيقة يكون بالقذيفة من المنجنيق أو المدفع، أو ما هو على شاكلتهما، من الأشياء الثقيلة، وبالتالي فقد استعير "القذف" للحق تشبيها بتلك الآلات التي تتميز بثقل وزنها وارتكازها ورسوخها في المكان التي تكون فيه، وذلك كي تتولد منها تلك القوة الكبيرة والمدمرة لكل ما تقذف به، وهذا ما يجعلها تصيب هدفها بدقة، فتدمره دمارا كاملا تجعله متطاير الأجزاء في الفضاء، كل ذلك للدلالة على ثبات الحق واستقراره في مقابل انزهاق الباطل وتطايره.

1-5- التعبير بالقذف يدل على شدة الحق على الباطل

ومما نجد كذلك في التعبير "بالقذف" التخييل، نظرا لما يتبعه من تصور القذف وحركته القوية المرفقة بالصوت الصاخب الذي يكاد يصم الآذان، كما نجد في القذف بالمدفعية تماما، ثم ما يرافق ذلك من وقوع قذيفة الحق على المقذوف عليه، وهو الباطل، وحالة الصعق، والتحطيم التي يؤول إليها حاله، يقول صبحي الصالح: "وأما التخييل ففي تصور نوع الثقل الذي تحدثه حركة القذف ثم الدمغ ثم الإزهاق، فإنها أصوات شداد توشك أن تكون صدى لعظام الباطل، وهي تتحطم وتقعقع"[2].

2- دلالات «إدماغ الحق للباطل»

وفي هذه الصورة كذلك تمت استعارة "الدمغ" الذي هو محسوس، "للباطل" الذي هو مستعار له معقول، وذلك بهدف "تصوير إبطاله وإهداره ومحقه"[3]، وقد تم اختيار استعارة ما هو محسوس لما هو معقول لنفس السبب الأول الذي ذكرناه مع الصورة الأولى، وهو الكشف والبيان: أي كشف الأقل بيان بالأكثر بيانا منه وكذلك أظهر والأوضح منه، بإلحاقة به عن طريق الاستعارة.

ويمكن حصر دلالات التعبير بالدمغ في هذه الاستعارة فيما يلي:

2-1- التعبير بالدمغ يدل على استطاعة وقوة

جاء التعبير عن الإزالة والإذهاب بالدمغ لبيان أن قهر الحق للباطل، بقذفه عليه، مقرون باستطاعة وقوة، لا يبقى معهما أدنى نصيب من شك، في كون الحق قادرا على إزهاق الباطل كل الإزهاق، كيف لا وقد استعير لفظ الدمغ الذي يكون بما هو صلب صلد كالصخر والحديد وغيرهما ليزل من على رأس دماغ الباطل!

2-2- التعبير بالدمغ يدل على غلبة واستعلاء:

وفي التعبير بالدمغ إضافة الى بيان الاستطاعة والقوة، نجد كذلك إرادة إبراز الغلبة والاستعلاء، أي غلبة الحق على الباطل واستعلاؤه عليه، يقول جعفر شرف الدين: "قال سبحانه: فَيَدْمَغُهُ و لم يقل فيذهبه ويبطله. لأن الدّمغ إنّما يكون عن وقوع الأشياء

1 - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج3، ص107.
2- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الرابعة والعشرون، كانون الثاني/ يناير 2000م، ص325.
3 - إعراب القرآن وبيانه، ج6، ص696.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الثقال، وعلى طريق الغلبة والاستعلاء. فكأنّ الحقّ أصاب دماغ الباطل فأهلكه. والدماغ مقتل. ولذلك قال سبحانه من بعد: فَإِذا هُوَ زاهِقٌ والزاهق: الهالك"[1]، وفي هذا ما فيه من إثبات الصغار والذل للباطل.

ويدل التعبير بالدمغ كذلك على أخذ الحق للباطل من فوق، والذي يثبت ذلك هو معنى الدمغ في اللغة، يقول ابن سيده (ت: 458هـ):"دمغه يدمغه دمغا: غلبه وأخذه من فوق. وفي التنزيل: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه)، أي: يعلوه ويغلبه"[2].

2-3- التعبير بالدمغ يدل على إزهاق الحق للباطل:

لأن الدمغ "هو كسر الدماغ"[3] فالتعبير به لا يترتب عليه إلا شيء واحد، وهو بلا ريب عدم سلامة الباطل بعد قذف الحق عليه، بل إنه سيشقّه أيما شق، ويدمغه أيما دمغ، الأمر الذي يترتب عليه إزهاق الباطل بأسوإ صورة، وأقبح منظر، وأفظع شكل، يقول أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ):" {فيدمغه} يقول: فيهلكه، كما يدمغ الرجل الرجل بأن يشجه على رأسه شجة تبلغ الدماغ، وإذا بلغت الشجة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة وقوله {فإذا هو زاهق} [الأنبياء: 18] يقول: فإذا هو هالك مضمحل"[4].

2-4- التعبير بالدمغ يدل على علو الحق وبقائه وتسفل الباطل وفنائه:

يقول محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: 1376هـ) في هذا المعنى:"واستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق على الباطل، بطريق التمثيل، فكأنه رمي بجرم صلب على رأس دماغ الباطل، فشقه. وفيه إيماء إلى علو الحق وتسفل الباطل، وأن جانب الأول باق والثاني فان" [5].

2-5- التعبير بالدمغ يدل على إزالة الباطل على جهة الحجة:

نظرا للقوة التي في التعبير بالدمغ بحيث لا يبقى هناك شك في هذه الإزالة فقد دل ذلك على أن ذلك لا محالة واقع من الحق للباطل على جهة الحجة واليقين لا على جهة الشك والظن، وفي هذا قوة نكاية بالباطل، يقول العسكري (المتوفى: نحو 395هـ): "والقذف أبلغ من الإيراد؛ لأن فيه بيان شدة الوقع وفي شدة الوقع بيان القهر، وفى القهر هاهنا بيان إزالة الباطل على جهة الحجة، لا على جهة الشك والارتياب، والدمغ أشد من الإذهاب، لأن فى الدمغ من شدة التأثير وقوة النكاية ما ليس فى الإذهاب"[6].

2-6- التعبير بالدمغ يدل على حسن الحق وبشاعة الباطل:

في هذه الصورة تصوير بديع لحقيقة الباطل في أبشع صورة، وبيان لعدم دوامه، بل على العكس من ذلك هو سريع الزوال، لا قرار له مع الحق ولا آصرة تجمعه به، بل هو على النقيض منه تماما، ولمجرد أن يحضر الحق يفقد الباطل شر فقد، إذ الباطل فقير ضعيف مهين خفيف صغير حقير...إلخ.

---

1 – الموسوعة القرآنية، خصائص السور، ج5، ص296.

2 – المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ – 2000 م، ج5، ص474.

3 – أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – 1418 هـ، ج4، ص48.

4 – تفسير الطبري، ج16، ص240.

5 – الجدول في إعراب القرآن الكريم، ج17، ص15.

6 – الصناعتين، ص272.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وفي المقابل من ذلك نجد في هذه الاستعارة تصويرا بديعا جميلا للحق، بما انعكس فيها من خصائص ومميزات، منها قوته على قهر الباطل، واستطاعته تبشيع صورته، وتمكنه منه أحسن تمكن، وقطعه لدابره أيما قطع، وذلك لأن الحق قوي صلب متين شديد عنيد حصين ثابت متمكن مكين أثير مرتفع...إلخ.

ثانيا: دلالات (الحق والباطل)

في لفظتي (الحق والباطل) وهما معنويان نجد استعارة أخرى مختلفة عن النوع الأول، وهي استعارة مكنية، وقد اختلف العلماء في الدلالات المقصودة بكل من (الحق والباطل) إلى الأقوال التالية:

1- دلالات الحق:

لا يختلف اللغويون في معنى الحق، إذ هو عندهم كما قال الخليل بن أحمد (المتوفى: 170هـ)"نقيض الباطل. حق الشيء يحق حقا أي وجب وجوبا"[1]، لكن معناه في هذه الآية يختلف من مفسر لآخر وذلك كما يلي:

1-1- الحق: كتاب الله القرآن

ممن ذكر ذلك من العلماء الطبري (المتوفى: 310هـ)، قال: "والحق كتاب الله القرآن"[2].

1-2- الحق: الكلام المتبوع

1-3- الحق: المواعظ

1-4- الحق: الإسلام

وهذه الأقوال السابقة ذكرها الماوردي (المتوفى: 450هـ) مجتمعة، وذلك بقوله: "قوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ} فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أن الحق الكلام المتبوع، والباطل المدفوع. ومعنى يدمغه أي يذهبه ويهلكه كالمشجوج تكون دامغة في أم رأسه تؤدي لهلاكه. الثاني: أن الحق القرآن، والباطل إبليس، الثالث: أن الحق المواعظ والباطل المعاصي، قاله بعض أهل الخواطر. ويحتمل رابعاً: أن الحق الإسلام، والباطل الشرك"[3].

1-5- الحق: الحجج والبراهين

يقول أبو جعفر (المتوفى: 338هـ): "بل نقذف بالحق أي بالحجج والبراهين. على الباطل وهو قولهم"[4].

1-6- الحق: الجد

وقد قال بهذا المعنى النسفي (المتوفى: 710هـ)، قال: "كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو بل من سنتنا أن نقذف أي نرمي ونسلط {بالحق} بالقرآن {عَلَى الباطل} الشيطان أو بالإسلام على الشرك أو بالجد على اللعب"[5].

---

1 -كتاب العين، ج3، ص6.
2 - تفسير الطبري، ج16، ص241.
3 - تفسير الماوردي، ج3، صص440-441.
4 - إعراب القرآن، ج3، ص48.
5 - تفسير النسفي، ج2، ص398.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

2- دلالات الباطل: وهي:

2-1- الباطل: الكلام المدفوع

2-2- الباطل: المعاصي

2-3- الباطل: الشرك

هذه المعاني الثلاثة قال بها الماوردي (المتوفى: 450هـ) [1]، في النص الذي ذكرته سابقا، والمقصود بالكلام المدفوع قول الكفار.

2-4- الباطل: إبليس

ممن ذكر ذلك من العلماء الطبري (ت: 310هـ)[2]، وقد عزاه البغوي (ت: 510هـ) إلى قتادة ومقاتل والكلبي، قال: «كما قال تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه [الأنبياء: 18] ، وقال: «قتادة: الباطل هو إبليس: أي ما يخلق إبليس أحدا ابتداء ولا يبعث. وهو قول مقاتل والكلبي"[3].

2-5- الباطل: الأصنام

قال البغوي (المتوفى : 510هـ): "قيل:الباطل الأصنام"[4].

2-6- الباطل: اللعب

ذكره النسفي (المتوفى: 710هـ)، قال: "كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو بل من سنتنا أن نقذف أي نرمي ونسلط {بالحق} بالقرآن {عَلَى الباطل} الشيطان أو بالإسلام على الشرك أو بالجد على اللعب"[5]

2-7- الباطل: السحر

قال شهاب الدين الخفاجي (المتوفى: 1069هـ):"قال الفراء: معناه تبين الحق من السحر"[6].

ومن كل هذه الأقوال يمكن استنتاج أن "الحق" عام في القرآن الكريم، والرسالة، والشرع، والكلام المتبوع، والمواعظ، والحجج والبراهين، والجد، وكل ما هو حق، **وكذلك** "الباطل" عام يشمل الكلام المدفوع، والمعاصي، والشرك، وإبليس، والأصنام، واللعب، والسحر، وكل ما يمكن وصفه بالباطل.

المحور الثالث: الدلالات العامة لصور الاستعارة القرآنية

1 – تفسير الماوردي، ج3، صص440-441.

2 – تفسير الطبري، ج16، ص241.

3 – معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، نشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ، ج3، صص585-586.

4 – معالم التنزيل في تفسير القرآن، ج3، ص586.

5 – تفسير النسفي، ج2، ص398.

6 – حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (المتوفى: 1069هـ)، دار النشر: دار صادر – بيروت، ج4، ص203.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بعد الوقوف على الكثير من الاستعارات في التركيب القرآني ومعرفة دلالاتها الخاصة، ظهر أن هناك دلالات أخرى لا تختص باستعارة واحدة في آية أو تركيب معينين، بل هي عامة تشمل العديد من الاستعارات في التراكيب المتباينة والمنتمية للسور المختلفة، وهذا لعمري يجعلها تبلغ أقصى غاية من الإعجاز، فلا يقدر أحد أن يسلك مسلكها، أو يسبك في كلامه سبكها، ومن تلك الدلالات نقتصر على ثلاثة أنواع على أمل استكمال البقية كي لا نطيل البحث، وهذه الأنواع كالتالي:

أولا: الدلالة على المبالغة والتكثير:

دلالة الاستعارة على المبالغة والتكثير في المعاني، هي الأهم والأولى في هذه الدلالات المشتركة، إذ هي خاصية موجودة بين جميع الاستعارات القرآنية، ولهذا قال عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ): "الاستعارة يراد بها المبالغة لا نقل اللفظ عما وضع له في اللغة"[1]، والذي يثبت هذا الكلام أن الغرض من الاستعارة هو إظهار المبالغة في التشبيه بادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به.

ونحن لا نقصد بالكلام عن المبالغة والتكثير أن الاستعارة تدل عليهما بأن تجيء لفظة أو أكثر فيها دالة على ذلك بصيغ من صيغ المبالغة، بل بدون تلك الصيغ، وإلا كانت أكثر دلالة على الزيادة في معنى المبالغة، إذا جمعت الاستعارة والصيغة في صورة ما.

ومن أمثلة دلالة الاستعارة على المبالغة والتكثير نذكر: قوله عز وجل: {وفجرنا الأرض عيونا} [القمر: 12]، يقول جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) في معنى التفجير ودلالته في الآية:"{وفجرنا الأرض عيونا} وحقيقته: " وفجرنا عيون الأرض " ولو عبر بذلك لم يكن فيه من المبالغة ما في الأول المشعر بأن الأرض كلها صارت عيونا"[2].

ففي قوله تعالى: {وفجرنا الأرض عيونا} نجد "التفجير" للعيون في المعنى، ولكنه وقع على الأرض في اللفظ، لأن الحقيقة فيه "وفجرنا عيون الأرض"، وأما تفجير الأرض بالعيون فغير ممكن في الحقيقة إذ التفجير خاص بعيون الماء، والسّر في ترك التعبير بذلك المعنى الحقيقي لم يكن سوى عدم دلالته على معنى المبالغة التي حققته الاستعارة ودلت عليه بالإشعار بأن الأرض كلها صارت عيونا.

هذا بخصوص النظم في هذه الاستعارة وكون "التفجير" وقع على الأرض في اللفظ، وإفادة ذلك للمبالغة، كما في قوله عز وجل: {واشتعل الرأس شيبا} [مريم: 4]، وإذا ما نظرنا إلى الصيغة التي جاء بها الفعل "فجّر" لوقفنا على دلالة أخرى دلّ بناء الفعل وصيغته عليها، إنها المبالغة في فعل التفجير، إذ أن الفرق بين فجَر وفجّر معلوم في اللغة، فإن في فجّر المضاعف من المبالغة والتكثير ما ليس في فجر الثلاثي لأن الفعل المشدد يفيد المبالغة، يقول ابن جني (المتوفى: 392هـ) في تأويل سبب هذه المبالغة الناتجة عن تكرير العين: "ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل، فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق. وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام، وذلك لأنها واسطة لهما ومنكوفة بهما، فصارا كأنهما سياج لها"[3].

وابن جني يقصد "بالمثال" بناء الفعل، وهذه الظاهرة التي يتحدث عنها في كلامه مشهورة في اللغة مشهود لها بالفضل في الدلالة على الكثرة في المعنى، ذلك أن تكثير حروف الفعل يقود مباشرة إلى تكثير معناه، وهو ما يدخل ضمن القاعدة اللغوية التي تقول: إن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى.

1 - كتاب دلائل الإعجاز، ج1، ص432.
2 - الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص150.
3 - الخصائص، ج2، ص167.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ومنه فقد اجتمعت لنا في "فجّرنا" مبالغتان، الأولى دلت عليها الاستعارة بنظمها، والثانية بلفظها، وفي ذلك إبراز شدة المبالغة، وإرادة الزيادة فيها، والإعظام في جانبها، ولا يظن أحد أن "فجَر" هي من الفجور وليس من الانفجار، لأن الأصل فيها غير ما يظن، إذ الأصل مرتبط بالماء ثم كثر فانتقل إلى المعاصي ليسمى التفتح فيها فجورا، قال ابن فارس (ت: 395هـ):"(فجر) الفاء والجيم والراء أصل واحد، وهو التفتح في الشيء. من ذلك الفَجْرُ: انفجار الظلمة عن الصبح. ومنه: انفجر الماء انفجارا: تفتح. والفجرة: موضع تفتح الماء. ثم كثر هذا حتى صار الانبعاث و التّفتُّحُ في المعاصي فجورا"[1]، فالقصد إذن من وراء هذه الاستعارة كما ذكرنا، وهو الدلالة على المبالغة غاية المبالغة، وتحقيق البلاغة البالغة.

ومن الاستعارات الدالة على المبالغة والتكثير قوله عز وجل: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا} [الأعراف: 168]، ففي هذه الآية نجد معنى "قطّعناهم" هو "فرقناهم"، يقول أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ) في تفسير الآية: "يقول تعالى ذكره: وفرقنا بني إسرائيل في الأرض أمما، يعني جماعات شتى متفرقين"[2]، ولكنه عبر عن افتراق اليهود بالتقطيع الذي هو خاص بالأجسام المتصلة التي تلتصق وتلتزق أجزاؤها، على سبيل الاستعارة، وذلك لوجود معنى جامع بينهما هو المشابهة في إزالة الاجتماع.

والغرض من التعبير بالتقطيع هو إرادة الدلالة على المبالغة في الإزالة لأنها أشد في التعبير بالتقطيع منها في التعبير بالتفريق، وهي ثابتة في هذه الاستعارة بادعاء دخول المستعار له في جنس المستعار منه، يقول عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: 1391هـ): "في قوله تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا}، فإن القطع موضوع لإزالة الاتصال بين الأجسام التي بعضها ملتزق ببعض؛ فالجامع بينهما إزالة الاجتماع التي هي داخلة في مفهومهما، وهي في القطع أشد"[3]، ثم شدد عين الفعل "قطّع" الذي هو مستعار للفعل "فرّق" للكثرة والمبالغة كذلك، الأمر الذي يجعل المبالغة في هذه الاستعارة أشد وأعظم.

ثانيا: الدلالة على الشمول والعموم:

ومن الاستعارات القرآنية الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل} [الإسراء: 12]، إذ أن معنى "محونا" في الحقيقة: كشفنا الظلمة، لكن عدل عن الكشف "للمحو" دلالة على عدم بقاء أي أثر، يقول الحسن العسكري (المتوفى: نحو 395هـ) في بيان الفرق بين المحو والكشف: "فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ: معناه كشفنا الظلمة، والأول أبلغ؛ لأنك إذا قلت: محوت الشيء فقد بينت أنك لم تبق له أثرا؛ وإذا قلت: كشفت الشيء مثل الستر وغيره لم تبن أنك أذهبته حتى لم تبق له أثرا"[4].

ومثله الاستعارة التي في قوله تعالى: {ربنا أفرغ علينا صبرا} [البقرة: 250]، ففي الآية نجد معنى "أفرغ" هو "أنزل" يقول أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ)"يعني أنزل علينا صبرا"[5]، ولكنه عبر عنه بالإفراغ على سبيل الاستعارة، لأن الإفراغ يدل على العموم، فهو يريد صبرا عاما، كالإفراغ الذي هو صب للماء على الشخص بحيث يعمه، قال الخليل (المتوفى: 170هـ): "والإفراغ: الصب، قال الله تعالى: أفرغ علينا صبرا: أي: اصبب"[6].

1 – معجم مقاييس اللغة، ج4، ص475.
2 – تفسير الطبري، ج10، ص533.
3 – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ج3، ص493.
4 – الصناعتين، ص272.
5 – تفسير الطبري، ج4، ص494.
6 – كتاب العين، ج4، ص408.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ثالثا: دلالة المشاهد على غير المشاهد

ومن الآيات الدالة على إخراج ما لا يرى إلى ما يرى قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} [الفرقان: 23]، يقول الطبري (المتوفى: 310هـ) في معنى {وقدمنا} ومعنى {هباء منثورا} اللتين استعملتا في غير معنيهما الوضعي: «يقول تعالى ذكره: {وقدمنا} وعمدنا إلى ما عمل هؤلاء المجرمون"[1]، وقال:"{فجعلناه هباء منثورا} يقول: فجعلناه باطلا، لأنهم لم يعملوه لله، وإنما عملوه للشيطان"[2].

فحقيقة "وقدمنا" هي "وعمدنا"، وحقيقة "فجعلناه هباء منثورا" "أبطلناه"، وفي كلتيهما نرى استعارة المحسوس للمعقول، وذلك بقصد إخراج ما لا يرى الذي هو معقول إلى ما يرى أي المحسوس، لأنه أبين منه، ومثله كذلك ما في قوله تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم} [آل عمران: 187] ففي الآية الكريمة تمت استعارة "النبذ" لمعنى التضييع، والترك، قال الطبري (المتوفى: 310هـ)،" {فنبذوه وراء ظهورهم} فإنه مثل لتضييعهم القيام بالميثاق، وتركهم العمل به"[3]، وهذا المعنى في الآية محسوس، بينما الأول المتروك معقول، وعليه فقد تمت استعارة المحسوس للمعقول، وذلك ليدل المشاهد على غير المشاهد بإخراج ما لا يرى إلى ما يرى، وما هو أخفى إلى ما هو أظهر.

والآيات التي تشبه ما ذكرنا كثيرة منها قوله تعالى {ويبغونها عوجا} في [هود: 19] ومثلها في [الأعراف: 45]، وقوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور} [البقرة: 257]، وقوله عز وجل: {في كل واد يهيمون} [الشعراء: 225] وغيرها من الآيات التي فيها استعارة المحسوس للمعقول، بقصد العدول مما لا يشاهد إلى ما هو مشاهد.

المحور الرابع: الدواعي الدلالية للتصوير بالاستعارة القرآنية.

لا ريب أن صورة الاستعارة في القرآن الكريم تنقل لنا مشاهد مختلفة تقوم برسم معالمها وحروفها بطريقة بديعة تجعل قيمتها التصويرية الفنية معجزة لا تضاهى، لأنها تزرع الحياة في الأشياء الجامدة، وتقرب المعاني المجردة، بشكل أجمل من الجميل وأحسن من الحسن، يجعل القرآن المسطور محاكيا للقرآن المنظور ويتجاوزه، ليعرضه وغيره على أحسن هيئة يمكن تخيلها، وأروع صورة يمكن تصورها.

ولذلك نجد أنفسنا ملزمين بالوقوف على الغاية من التصوير وتخصيص القول فيه، لنشيد بكثير من التحليلات الموفقة التي تبرز جمال الصورة القرآنية عند علمائنا، ولنكشف عن ذلك كالتالي:

أولا: داعي التشخيص:

ومنه ما نجده في قوله تعالى: {والصبح إذا تنفس} [التكوير: 18]، ففي هذه الآية الكريمة نجد استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس، حيث استعير خروج النفس شيئا فشيئا لخروج النور من المشرق عند أول الفجر قليلا قليلا، يجامع التتابع على طريق التدريج، يقول ابن أبي الإصبع العدواني، (المتوفى: 654هـ): "فإن ظهور الأنوار في المشرق من أشعة الشمس قليلا قليلا بينه وبين إخراج النفس مشابهة شديدة"[4]. وقد وقف صبحي الصالح على التصوير الفني في الآية، بالنظر في ظاهرة التشخيص التي تميزها، فنبه

1 – تفسير الطبري، ج17، ص430.
2 – المصدر السابق، ج17، ص431.
3 – نفسه، ج6، ص298.
4 – تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ص99.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

عليها وبينها، بقوله :"الحياة تخلع في هذه الآية على الصبح، حتى لقد صار كائنا حيا يتنفس، بل إنسانا ذا عواطف وخلجات نفسية تشرق الحياة بإشراقة من ثغره المنفرج عن ابتسامة وديعة وهو يتنفس بهدوء"[1].

فصار الصبح بهذا التصوير البديع كأنما هو رجل مقبل بوجهه الغر البشوش، مفترّا عن ثغره يبدي أسنانه، كأنه مسافر يعود بعد طول غياب، أو كطفل في لحظة ولادته يخرج من بطن أمه ليتنفس الصعداء بأنفاسه الأولى في هذا الكون الفسيح، كي يتابع مسيرته في الحياة فيعيش ما قدر له أن يعيش، أو كحيوان حي يسعى له روح يطلع من بعيد، وأنفاسه تتعالى بادية عليه، من خلال حركته، وما يرافق ذلك من شهيق وزفير، وغير هذا من المعاني التي يمكن قياسها على ما ذكرنا كثير لا حد له.

ثانيا: داعي التجسيم:

ونبين هذا الداعي من خلال قوله تعالى {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} [الحجر: 94]، حيث يقصد "بالصدع" في اللغة الشق، يقول الجوهري (المتوفى: 393هـ): " الصدع: الشق. يقال: صَدَعْتُه فانْصدع هو، أي انشقّ"[2]، لكن في الآية في الكريمة نجد "الصدع" الذي هو محسوس مادي مشاهد مرتبط بجسم يمكن شقه، استعير للتبليغ الذي هو معنوي مجرد معقول، وذلك لتجسيمه، لأن الأجسام أظهر من غيرها.

وقد فسر ابن قتيبة الدينوري (المتوفى: 276هـ)الآية بقوله:" يريد: اصدع الباطلَ بحقِّك"[3]، فشبه الباطل بزجاجة، ومعلوم أن تجسيم الباطل بهذا الشكل فيه إظهار لقابليته السريعة للتصدع، وشبه حق النبي الذي هو الإسلام بحجر، وهذا التجسيم فيه قوة وشدة، ثم أمر النبي أن يشق ذاك الباطل بهذا الحق، وهو المعنى الذي يثبته كذلك قول الله تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق} [الأنبياء: 18] الذي وقفنا عنه سابقا.

وفي قولنا إن "الصدع" استعير للتبليغ تكون المناسبة بين اللفظين في معنى التأثير أي أن المشاركة والمشابهة الجامعة بينهما في هذا المعنى، مع أن تأثير الصدع أقوى من تأثير التبليغ ولهذا تم اختيار التعبير به دون التبليغ، يقول السيوطي (المتوفى: 911هـ)" {فاصدع بما تؤمر} استعير الصدع وهو كسر الزجاجة وهو محسوس للتبليغ وهو معقول والجامع التأثير وهو أبلغ من "بلغ" وإن كان بمعناه لأن تأثير الصدع أبلغ من تأثير التبليغ فقد لا يؤثر التبليغ والصدع يؤثر جزما"[4].

وقد جاءت الاستعارة مجسمة لما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنها جعلته كالجسم الذي من خصائصه سرعة العطب، والقابلية للشق والكسر، وذلك حتى يصدعه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوة لأنه لا يعجزه، يقول صبحي الصالح شارحا كلام السيوطي السابق: «كأن السيوطي يقول بتعبير آخر: إن ما أمر به عليه الصلاة والسلام جسم فأصبح مادة سريعة العطب قابلة للشق والكسر، فليصدعها بقوة"[5].

---

1 – مباحث في علوم القرآن، ص324.

2 – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ – 1987 م، ج3، ص1241.

3 – غريب القرآن، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق: أحمد صقر، نشر: دار الكتب العلمية، السنة: 1398 هـ – 1978 م، ص240.

4 – الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م، ج3، ص152.

5 – مباحث في علوم القرآن، ص326.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ثم إن الحكمة من هذا التصوير تكمن في كون الصدع هو الذي يهز بقوته من كان في غفوة، يقول سيد قطب (المتوفى: 1385هـ):" فالصدع القوي النافذ هو الذي يهز الفطرة الغافية ويوقظ المشاعر المتبلدة ويقيم الحجة على الناس «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» أما التدسس الناعم بهذه العقيدة وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانبا ويكتم جانبا، لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير! فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهذه العقيدة القوية"[1]. وكلام السيد قطب رحمه الله –كما عودنا في تفسيره– فيه تنزيل للآيات على الواقع المعاش حيث يبين الاستعارة التي في الآية في علاقتها بالحياة والدعوة فيجعل وظيفة الإسلام هي الهداية وذلك لا يكون إلا بعد أن يصدع أهل الدعوة بالدين الحق، ولا يخشون في الله لومة لائم، بغض النظر عما سيلاقونه في سبيل ذلك.

ثالثا: داعي التخييل:

ومنه ما في قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ} [يس: 37] حيث جاءت الاستعارة فيه مشكلة من مستعار منه هو السلخ الذي هو نزع جلد الحيوان، وهو حسي، ومستعار له غير مذكور هو خروج الضوء عن الليل وهو حسي كذلك، وعليه فالاستعارة في الآية تحقيقية، لأن المستعار له أمر محقق يدرك بالحس، والعلاقة الجامعة بينهما هي المشابهة في الظهور وترتب أمر على آخر وحصوله عقبه، وهو معنى عقلي، أي ترتب ظهور اللحم بعد السلخ، وظهور الظلمة بعد الضوء.

وقد عبر بالسلخ عن الخروج لأن السلخ أكثر دلالة على الالتحام بين الشيئين، لأنه في الحقيقة يكون بين شيئين فيهما التحام حقيقي كما نجد تماما بين الجلد واللحم، وأما معنى الالتحام بين الليل والنهار فهو متوهّم على سبيل التخييل وإرادة الزيادة فيه، لأنها تصور الالتحام بين الليل والنهار، ثم خروج النهار من الليل، في صورة الالتحام الموجود بين شيئين في كائن حي، كما هو الأمر مع الحيوان الذي يلتصق جلده بلحمه، بحيث أن هذا الجلد لا يكاد ينفك عن اللحم إلا بفعل فاعل، وبصعوبة قليلا قليلا على مكث، وبمهل وتؤدة، لشدة التحامه به، وصعوبة خروجه عنه، يقول علي صبح في بيان التخييل الذي في الآية: «يتلاشى النهار عن الليل كما ينسلخ الجلد عن اللحم رويدًا رويدًا؛ فكلما انسحب جزء من النهار أظلم الكون قليلًا بمقدار هذا الجزء، وهكذا حتى يسود الليل، ويعم الظلام، ثم يتعاقب عليه بعد ذلك النهار، فتبدأ حركة الأرض مع الشمس فتظهر شيئا فشيئا، لتضيء وجهًا من وجوه الأرض، وهكذا حتى ينتشر النهار كله"[2].

ثم إن في هذه الصورة الاستعارية بهذا التعبير دلالة بليغة على حقيقة علمية فلكية، ألا وهي كون الليل هو الأصل وهو موجود قبل النهار، وليس العكس، لأن المسلوخ متأخر وجودا عن المسلوخ منه، ولا يكون إلا به ومنه.

1 – في ظلال القرآن، سيد قطب، نشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: 17، عام 1412هـ، ج4، ص2155.
2 – التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث، د.ط، د.ت، ص126.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الخاتمة:

توصلنا من خلال هذا البحث إلى حزمة من النتائج والخلاصات نجملها فيما يلي:

1. تتعدد أغراض الاستعارة لكن أهمها الدلالة على المعاني والإبانة على مقاصد المتكلمين، والتوسع في ذلك، إضافة إلى المبالغة، والدلالة على الشمول، وإخراج ما لا يرى إلى ما يرى، وهو ما يجعل وظيفة الاستعارة كوظيفة المِجهر "الميكروسكوب" تماما لأنهما معا يقربان البعيد، ويكبران الصغير، غير أن الاستعارة لها طريقتها المخصوصة التي تقوم على خلق علاقة بين مستعار منه ومستعار له، سواء عن طريق المشابهة أو التجسيد، أو التشخيص، أو التجريد. وذلك وبأسلوب يتميز بالإيجاز والإقلال، بعيدا عن الإطناب والإملال.

2. في الاستعارة ادعاء كون المستعار له فردا من أفراد المستعار منه، وذلك للدلالة على معنى آخر جديد لا يدل عليه المستعار له، ومنه فكل تصوير بالاستعارة فيها دلالة جديدة أو أكثر.

3. دلالات الاستعارات المفردة في التراكيب القرآنية على المعاني الكثيرة، لا تختص بنوع منها دون آخر، بل هو شامل كل الاستعارات، ففي وقوفنا على نموذج للاستعارة التصريحية المفردة في قوله تعالى: {لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور} [الحديد: 9] وجدنا أن ذلك حذف المستعار له فيها، ترتب عليه إمكانية إفادة معان غير محصورة بعدد، وما من معنى إلا وتتولد منه معاني أخرى ذكر المفسرون بعضها، والبعض الآخر لا عهد لنا به. وليس المراد إحداها فحسب، بل كلها مرادة ومقصودة.

4. ونفس الأمر نجده مع الاستعارة المكنية، التي يكون فيها المستعار منه محذوفا من التركيب، إذ تبين أن ذلك الحذف ترتب عليه إفادة معان واسعة غزيرة كذلك، كما هو الأمر مع قوله تعالى:{رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا} [مريم: 4]، فإن المستعار له هو الشيب، والمستعار منه وهو النار، والمستعار هو: الاشتعال، والمستعار منه محذوف من التركيب، لكن بقيت قرينة تدل عليه هي المستعار: "اشتعل"، فنتج عن التعبير باشتعال الرأس دلالات كثيرة منها الدلالة على البياض، وعلى الاستغراب من الشيب، وعلى سرعة انتشاره مع تعذر تلافيه، وعلى كبر السن، ثم على الضعف والنقصان، وهلم جرا. وفي الاستعارة التي تكون في غير المفرد أي "الاستعارة التمثيلية"، وقفنا مع قوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ} [الأنبياء: 18]، فوجدنا نوعين من الاستعارة الأولى في لفظي (نقذف ويدمغ) والثانية في لفظي (الحق والباطل)، فظهر لنا أن الدلالات الخاصة للتعبير بهذه الاستعارة عديدة، ومنها دلالات التعبير بالقذف الذي وصلنا إلى أنه يدل على قوة الحق وقهره للباطل، ويدل على ثبات الحق وثقله وتغير الباطل وخفته، وعلى صلابة الحق ورخاوة الباطل، وثبات الحق واستقراره، وانزهاق الباطل وتطايره، وعلى شدة الحق على الباطل. كما أن التعبير بالدمغ في هذه الاستعارة له عدة دلالات كذلك.

5. ولا يقف الأمر عند هذا الحد في هذه الاستعارة التمثيلية، بل انعكس التعدد الدلالي في اللفظتين المستعارتين على المستعار لهما (الحق والباطل) فتعددت دلالتهما هما كذلك، فاختلف العلماء في الدلالات المقصودة بكل منهما لكن من أقوالهم يمكن استنتاج أن "الحق" عام في القرآن الكريم، والرسالة، والشرع، والكلام المتبوع، والمواعظ، والحجج والبراهين، والجد، وكل ما هو حق، وكذلك "الباطل" عام يشمل الكلام المدفوع، والمعاصي، والشرك، وإبليس، والأصنام، واللعب، والسحر، وكل ما يمكن وصفه بالباطل.

6. بعد الوقوف على الكثير من الصور الاستعارية ومعرفة دلالاتها الخاصة، ظهر أن هناك دلالات أخرى لا تختص باستعارة واحدة في آية أو تركيب معينين، بل هي عامة تشمل العديد من الاستعارات في التراكيب المتباينة والمنتمية للسور المختلفة، وهذا إعجاز دلالي خاص بالاستعارة يدل على تميّزها في الاستعمال القرآني، ومن تلك الدلالات: الدلالة على المبالغة والتكثير وهي الأهم والأولى

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

في هذه الدلالات المشتركة، إذ هي خاصية موجودة بين جميع الاستعارات القرآنية بدون استثناء وهذا الأمر غاية في الإعجاز، ثم إنه قد تجتمع في صورة ما مبالغتان: مبالغة الاستعارة ومبالغة صيغ المبالغة، فيكون في ذلك إبراز شدة المبالغة، وتحقيق البلاغة البالغة .

7. تتجلى أهمية التصوير في الاستعارة في كونها تَنفخُ به الروح في الجماد الجامد، ليصير حيا ناطقا، وتودع الفصاحة في الأعجم، ليصير في القول مِنْطِيقا، إضافة إلى أن به تقوم بتحويل المعاني الخفية المستترة، لتصير ظاهرة مسفرة، كما يتم نقل مشاهد مختلفة تقوم برسم معالمها وحروفها الصورة خدمة للمعاني بطريقة بديعة تجعل قيمتها التصويرية الفنية معجزة لا تضاهى، لأنها تزرع الحياة في الأشياء الجامدة، وتقرب المعاني المجردة، بشكل أجمل من الجميل وأحسن من الحسن، يجعل القرآن المسطور محاكيا للقرآن المنظور.

والله تعالى أعلى وأعلم، والحمد لله رب العالمين.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1) ابن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2000 م

2) ابن قتيبة الدينوري، غريب القرآن، تحقيق: أحمد صقر، نشر: دار الكتب العلمية، السنة: 1398 هـ - 1978 م.

3) أبو جعفر الطبري، تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر عبد السند حسن يمامة، نشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م.

4) أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ.

5) أحمد ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله رسلان، نشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: 1419 هـ.

6) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.

7) البغوي محيي السنة، تفسير البغوي = معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ.

8) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.

9) جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.

10) جعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية، خصائص السور، تحقيق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، نشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1420 هـ.

11) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م.

12) الجوهري أبو نصر، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م.

13) الخصائص، عثمان بن جني، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة، د ت.

14) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، نشر: دار ومكتبة الهلال، د ط، د ت.

15) السمرقندي أبو الليث، بحر العلوم، د د، د ط، د ت.

16) سيد قطب:

- التصوير الفني في القرآن، نشر: دار الشروق- بيروت- القاهرة، ط:17، د ت.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- في ظلال القرآن، نشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: 17، عام 1412هـ.

17)شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، دار النشر: دار صادر – بيروت، د ط، د ت.

18)صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، نشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الرابعة والعشرون، كانون الثاني/ يناير 2000م.

19)الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، نشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ.

20)عبد العظيم ابن أبي الإصبع العدواني، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، نشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، د ط، د ت.

21)عبد القاهر الجرجاني، كتاب دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، نشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م.

22)عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، نشر: دار الفكر العربي، القاهرة، د ط، د ت.

23)عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، نشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: 1426هـ-2005م

24)علي صبح، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، نشر: المكتبة الأزهرية للتراث، د.ط، د.ت.

25)الماوردي، النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

26)مجاهد، تفسير مجاهد، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، نشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1989 م.

27)محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ، نشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر : 1415 هـ - 1995 م.

28)محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد بالتعليقات، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، نشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م.

29)محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي – الخواطر، نشر: مطابع أخبار اليوم، الطبعة: 1997م.

30)محمود بن عبد الرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم، نشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، 1418 هـ.

31)مصطفى درويش، إعراب القرآن وبيانه، نشر: دار الإرشاد للشؤون الجامعية - حمص - سورية، الطبعة: الرابعة، 1415 هـ.

32)مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، نشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى - 1423 هـ.

33)النسفي أبو البركات، تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق وتخريج الأحاديث: يوسف علي بديوي، مراجعة وتقديم: محيي الدين ديب مستو، نشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998م.

© المؤلفون. مرخّص بموجب (CC BY-NC 4.0) Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/